Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرثـــاء :

ومـراثى أبى تمام لا تقـل عن مدائحـه روعة ، وإذا كـان قد بلغ ذروة الإحسان فى أناشيد النصر وملاحمه فإنه بلغ أيضا هذه الـذروة فى مراثيـه . ويقول أحد النقاد المحدثين فى هذا الصدد : « كان البحترى موفقاً كل التوفيق حين قال عن أبى تمام إنه مدَّاحة نوَّاحة ، فقد أعطى هذين الغرضين حياته . . ثم موته »(١٥٢) . وعلى كل فهو فى شعره يـرى أن الموت هـو الوجـه الآخر للحياة ، وهو فى الوقت نفسه مدرك للهول الـذى ينزلـه الموت بـالإنسان ، وبخاصة حين يخلف الموت بديلاً عنه ممثلا فى الحزن ، ويتجلى هذا فى رثائه المفجع لمحمد بن حميد الطوسى ، يقول فيه :

فَـتىً كلما فـاضـتْ عيـونُ قـبيـلةٍ ... دَماً ضحكتْ عنه الأحاديث والذِّكْرُ
فتى مات بين الطَّعْن والضَّرْب ميتةً ... تقـوم مقام النصر إن فاتـه النَّصْرُ
فـأثبت فى مُسْتَنْقَـعِ المـوتِ رِجْلَهُ ... وقال لها مِنْ تحت أَخْمَصِـك الحَشْرُ
تَـردَّى ثيابَ المـوتِ حُمْراً فـما دَجَى ... لها الليلُ إلا وهْى من سُنْدُس خُضْرُ
مضى طاهرَ الأثوابِ لم تَبْقَ رَوضةٌ ... غداةَ ثوَى إلا اشتهتْ أنها قَبْرُ(١٥٣)

وما فى هذه القصيدة من زخرفة لم يفسدها ، لأن الحزن لا يكون عارياً تماماً .

ثم إن الزخرفة نفسها من صميم المعمار الحزين للقصيدة . ووقفته عند الموت لم تقف عند الرجال العظام فى عصره فقط ، وإنما تعدتهم إلى كل الذين مسّ موتهم قلبه ، فهو كما رثى المعتصم نراه يرثى ولدين صغيرين لعبد الله بن طاهر ، وهو يركز فى رثائه ، على « بغتة » الموت التى تفاجىء فتحرم الحياة مما كان متوقعاً :

إنَّ الفجيعـةَ بالـرِّيَـاضِ نَـوَاضِـراً ... لأجـلّ منهـا بـالـرِّيَـاضِ ذَوَابِـلا
. . لَهْفِى عـلى تلك الشَّمائـل فيهما ... لـو أمهلتْ حتَّى تكُـونَ شَمَـائِـلا
لغَـدَا سُكُونهما ضُحىً ، وصبـاهمـا ... حُـلْماً ، وتلك الأريحيَّـة نَـائِـلاً

---

(١٥٢) أبو تمام وقضية التجديد فى الشعر للدكتور عبده بدوى ٦٨ .
(١٥٣) ديوان أبى تمام (طبعة بيروت) ٣٣٠ .